﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين أوّليّة المسجد الحرام، واتّخاذه موضعًا لأداء الحجّ لله

بعد أن أخبر الله تعالى في الآية السَّابقة، أنَّ البيت الحرام هو أوَّل بيت وُضِع للنَّاس، وأنَّه مبارك وهدًى للعالمين، ذكر في هذه الآية بعض العلامات الواضحات في هذا البيت، من وجود مقام إبراهيم به، وأَمْنِ من دخلَه، وغيرهما من الآيات، ثمّ ذكر وجوب حجِّه على من استطاع إليه سبيلًا، وذكر مجاهد أنّ المسلمين واليهود تفاخروا، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنّه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدّسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية والآية الّتي قبلها، إبرازًا للحقيقة، ووضعًا للأمور في نصابها، وتأكيدًا أنّ المسجد الحرام سابق في الأوّليّة والأفضليّة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: مقام اسم مكان من قامَ، واختلف في المراد بـ قوله: ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: فقيل: هو الحجر المعروف، وهو الأظهر، وقيل: هو البيت الحرام كلُّه؛ لأنَّ إبراهيم بناه، وقام في جميع أنحائه، وقيل: مكَّة كلُّها مقام إبراهيم[2]، (وَالْمَقَامُ) بِالْفَتْحِ مَوْضِعُ الْقِيَامِ (وَمِنْهُ) مَقَامُ إبْرَاهِيمَ وَهُوَ الْحَجَرُ الَّذِي فِيهِ أَثَرُ قَدَمَيْهِ وَهُوَ مَوْضِعُهُ أَيْضًا (وَأَمَّا الْمُقَامُ) بِالضَّمِّ فَمَوْضِعُ الْإِقَامَةِ وَقَامَتْ عَلَيْهِ الدَّابَّةُ، كَلَّتْ حَتَّى وَقَفَتْ فَلَمْ تَبْرَحْ مَكَانَهَا[3].

(1) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/217.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/476.
(3) المُطَرِّزِيّ، المغرب: (قوم).

2) ﴿حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾: الحِجُّ والحَجُّ مصدر: حجَّ فلانٌ؛ إذا قصَدَ مكانًا للزِّيارة، ثم صار حقيقة شرعيَّة، بمعنى: قصدِ زيارة البيت الحرام على وجه مخصوص، وكسرُ الحاء وفتحها فيه لغتان، وقيل: الحَجُّ - بالفتح - هو المصدر، والحِجُّ - بالكسر - هو الاسم، وبكسر الحاء قرأ حفصٌ وحمزة والكسائيُّ وخلف وأبو جعفر، وبفتحها قرأ باقي العشرة[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

علامات تشريف البيت الحرام، بالحجّ به لله، وإبـراز قدسيّة المقام

في بيت الله الحرام علامات واضحات على شرفه وفضله، منها مقام إبراهيم - وهو الحجَر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت - ومنها أمن مَن دخله استجابةً لدعوة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: 126]، "وحجّ هذا البيت واجب على المستطيع من النّاس، ومن أبى وتمرّد على أمر الله، وجحد دينه، فالخسران عائد عليه، وإنّ الله غنيٌّ عن هذا العاصي، وعن النّاس كلّهم[2].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفَصْل في قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾:

الاستـئـنـافُ للتَّنبيه على ما في البـيـتِ من المناقبِ والمزايا

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ اسْتِئْنَافُ ثَنَاءٍ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ بِمَا حَفَّ بِهِ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْمَزَايَا فَغُيِّرَ الْأُسْلُوبُ لِلِاهْتِمَامِ، فأتت الجملةُ مستأنفةً غيرَ موصولةٍ بما قبلَها مع مَا بَيْنَهُمَا من الاتِّصال، وإنَّما فُصِلت عمَّا قبلها، ولم تُعطَف عليه بالواو؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ الواو فيها هي واو الحال، فيلتبس المعنى على السَّامع، فكان الفصل هو الأفصحَ؛ دفعًا للَّبس[3].

(1) الرَّاغب، المفردات: (حج)، والبيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 2/29، وابن الجزريّ، النّشر: 2/241.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 86.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/13.

دلالة استعمالِ الظرفِ في قولِه: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌ﴾:

الآيـاتُ راسخةٌ ومتمكِّنةٌ من البيتِ

الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌ﴾ مجازيَّة؛ لأنَّ الآيات المذكورة كمقام إبراهيم وأمان من دخل البيت الحرام ليست موجودةً داخل البيت، أي: بين جُدرانه، لكن لَمَّا كان البيت وُضع للناس بحرَمه وفضائله؛ ساغ إطلاق أنَّ الآياتِ فيه؛ تجوُّزًا[1]، وأفاد معنى المبالغة والتَّصويرِ، فكأنَّ الآيات قائمةٌ فيه، تمكُّنًا ورسوخًا.

علَّةُ وَصْفِ الآياتِ بالبيِّنات:

ظهورُ الآياتِ للنَّاسِ يجعلُه بيِّنةً

وَصفَ اللّٰه تعالى الآيات بأنّها بيِّناتٌ في قوله تعالى: ﴿ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ﴾؛ لأنّها ظاهرة في عِلْم المخاطَبين، وأظهر ذلك ما يسَّرَه اللّٰه تعالى لأهل الحرم وزائريه من الأمن والمنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ممَّا كان متَّفقًا عليه بين العرب من قبل ظهور الإسلام[2].

نكتةُ بيانِ الجمعِ بالمفردِ في قولِه: ﴿ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

قيل في قوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بأنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وقيل: عطف بيان[3]، أمّا على إعرابِه خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ ففيه مجازٌ بحذف المسنَدِ إليه، تقديره: هو مقام إبراهيم، وهو كحذفِ المبتدأ مع نعم وبئس وما جرى مجراهما، ومنه قول العرب: رمية من غير رامٍ، أي: هي رمية[4].

تضمينُ آيةِ المقامِ آياتٍ عدَّةً

وعلى إعرابه عطفَ بيانٍ؛ فيُسأل عن سرِّ بيان الجمع في قوله: ﴿ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ﴾ بالمفرد في قولِه: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾؟ والجواب: أنَّه لكون مقام إبراهيم بمنزلة آيات متعدِّدة؛ لقوَّة دلالته على قدرة اللّٰه تعالى ونبوَّة إبراهيم عليه السلام، أو لاشتماله على عدَّة آيات كأثرِ القَدَمِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/475.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/17.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 3/317 - 320.
(4) الدَّمنهوريُّ، حلية اللُّبِّ المصون، ص: 49، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/17.

في الصَّخرة الصَّمَّاء، وإلانةِ بعض الصَّخر دون بعضه، وإبقائه دون غيره من معجزات الأنبياء، وحفظِه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب[1].

الإنشاء بلفظ الخبر في: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾:

الوعيد الضِّمنيُّ يقتضي الأمـانَ لِدَاخِلِ البيتِ

ذهب كثير من العلماء إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ أمرٌ جاءَ في صيغة الخبر، ومعناه: ومن دخله؛ فأمِّنوه بأمان الله، وجاء الأمر هنا بصيغة الطَّلب حملًا للمخاطَبين على فعل المطلوب منهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة: 233][2]، وهذا الإخبارُ يقتضي الوعيدَ لمن خوَّف من هو داخلَ الحرمِ بنوعٍ أذى، ومنه أُخِذَت دلالةُ الأمرِ.

دلالة الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾:

أهلُ مكَّة آمنون أمانًا أصيلًا لا يكونُ لغيرِهم

وقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ فيه امتنان بأمان من دخل البيت الحرام وأهل مكَّة من النَّهب والغارات الَّتي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الإسلام، ويُفهَم من هذا الامتنان بقياس الأَولى الامتنانُ على أهل مكَّة بأمانهم دون سائر العرب يومئذٍ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت: 67][3].

سببُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ على السَّابقِ:

حجُّ البيتِ حالٌ لازمةٌ له إلى يومِ القيامةِ

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وُصِلت هذه الجملة بما قبلها بعطفها عليه بالواو، وَالتَّقْدِيرُ: مُبَارَكًا وَهُدًى، وَوَاجِبًا حَجُّهُ، فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى الْأَحْوَالِ. ووجه ذلك أنَّ الحكم بإيجاب الحجِّ فيه تنويه بشأن البيت الحرام، وكون حجِّه حقًّا لله على النَّاس، فناسب ذلك

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/387.
(2) الثعلبيُّ، الكشف والبيان: 9/18.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/8.

ما قبله من الامتنان بأمن داخله واشتماله على الآيات البيِّنات، فحسُن وصلُه به[1].

الحجُّ عبادة عظيمة حريٌّ التَّنويه بها في سياقِ الرَّدِّ على أهل الكتابِ:

وفي حديث القرآن عن الحجِّ - بعد الرَّدِّ على أهل الكتاب، وبيان مخالفتهم لملَّة إبراهيم، قبل أن يعود الكلام إلى الرَّدِّ عليهم وإقامة الحجَّة عليهم - دلالةٌ على الشَّأن العظيم والخطب الجليل لهذه العبادة الَّتي اقتضَتْ مناسبةُ ذكرِ بعض متعلِّقاتها التَّنويهَ بشأنها، والتنبيهَ على فرضيَّتِها على جميع النَّاس[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ العظيم في: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

مقتضى الحجِّ تحقيقُ الألوهيَّة وتعظيمُ الرُّبوبيّة

عُبِّر بلفظ الجلالة خاصَّة دون سائر أسماء الله تعالى وصفاته في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ لِمَا تفيده هذه الجملة من وجوب زيارة البيت الحرام على النَّاس زيارة مخصوصة، خاضعين مستسلمين لله تعالى، فكان لفظ الجلالة أنسب من غيره لما يدلُّ عليه من عِزَّة الألوهيَّة وكبرياء الربوبيَّة، فكأنَّه قيل: وللملك - الَّذي له الأمرُ كلُّه - على النَّاس أن يحُجُّوا البيت[3].

دلالة تقديم الخبر: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

الحجُّ عبادة تختصُّ بالله تعالى

قُدِّم الخبر على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ للدَّلالة على تخصيص الخبر به وقصره عليه، فأفاد ذلك أنَّ الحجَّ عبادة لا تختصُّ إلَّا بمعبود جامع للكمالات كلِّها، وهو الله تعالى[4]، وفي ذلك تنبيهٌ على ما كان في الجاهليّة من الحجِّ لغيرِ الله تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/21.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/8.
(4) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 4/192.

معنى اللّام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾:

لام الجرِّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ للاستحقاق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]، وفيها دلالةٌ على أنَّ الحجَّ عبادة مستحقَّة لله تعالى في ذمَّة جميع الناس ممَّن يستطيع الحجَّ[1].

الحج عبادة مستحَقَّة لله في ذمَّة جميع الناس

سرُّ التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

يؤكِّد حرفُ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الدَّلالة على وجوب الحقِّ، وذلك لِمَا يدلُّ عليه ﴿عَلَى﴾ في هذا السِّياق من معنى الاستعلاء والقهْر[2]؛ ليكون النَّاس أكثرَ طواعيةً للأمر القاهر من الله تعالى، الذي استحقَّ من النَّاسِ جميعًا هذه العبادة.

الحجُّ فرض من الله العليِّ القاهر

دلالة وضع الاسم الظَّاهِر موضعَ الضَّمير في ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

أُقيم الاسم الظَّاهر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ مُقام الضَّمير، فلم يقل تعالى: ولله عليكم أو نحو ذلك؛ وذلك لأمرين:

الإشعار بعِلِّيَّة وجوب الحجِّ

الأوّل: الاسم الظَّاهر هنا مشعِر بعلِّيَّة وجوب الحجِّ، لأنَّ المخاطَبين بفرَضيَّتِهِ ناسٌ، أي: عبيد لربِّهم، مفتقرون إلى طاعته ورضاه، سواء عرفوا الحكمة من هذه العبادة أم لا[3].

الثَّاني: الدّلالةُ على شمول فرضِ الحجِّ جميعَ النَّاس، فهو غير خاصٍّ بالمخاطبين بالقرآن أصالة من الصَّحابة أو العرب وحدهم، وإنَّما هو فرض عامٌّ على النَّاس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم[4].

الحجُّ فريضة على جميع النَّاس لا العربِ وحدَهم

سرُّ ذكر البيتِ في قولِه: ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ وُضع الاسمُ الظَّاهر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/22.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/8.

التَّنويه بذكر البيت الحرام

وهو ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ ولم يقل: ولله على الناس الحجُّ، للتَّنويه بذكر البيت الحرام وتفخيمه، وإشارة إلى أنَّ هذا البيت حريٌّ بالحكم المتعلِّق به من قصدِه بالحجِّ وتحمُّلِ المشاقِّ لأجل زيارته[1].

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميَّة في: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾:

الحجُّ حقٌّ ثابتٌ لله في رقاب النَّاس

في الجملة الاسميَّة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ دلالة على ثبوت فرض الحَجِّ ودوام هذا الحقِّ لله في رقاب النَّاس، بحيث لا يخرجون من عُهدته إلَّا بأدائه، وذلك لِمَا تدلُّ عليه الجملة الاسميَّة من الثُّبوت والدَّوام[2]، ولما في القصر بطريق التَّقديم من تمكين المعنى وتقويته.

فائدةُ البدلِ في قولِه: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾:

تعيينُ صفةِ مَن يجب عليه الحجُّ، وتبيينُهُ بعد إجماله

أُبدل الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ من ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وفي هذا الإبدال أدلَّة عدَّة على تشديد أمر الحجِّ وتأكيد العناية به: فمنها تثنية ذكر المراد بتكرير من يجب عليه الحجُّ مرَّتين: مرَّة بلفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ومرَّة بلفظ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾، ومنها ما يقتضيه هذا البيان بعد الإجمال الَّذي في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من ذكر المراد بصورتين مختلفتين[3].

تخصيص الحجِّ بالمستطيع مما يقتضي الشُّكر

وفي هذا الإبدال حملٌ للمخاطَبين بعبادة الحجِّ على شكر الله تعالى لما يدلُّ عليه التَّخصيص بـ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ بعد التَّعميم الَّذي في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من تخفيف الحكم وتيسيره[4].

دلالة تقديم المتعلَّق في قولِه: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾:

قدِّم المتعلَّق - وهو ﴿إِلَيۡهِ﴾ - على المتعلَّق به، وهو ﴿سَبِيلٗاۚ﴾ في

(1) الطَّيبيُّ، فتوح الغيب: 4/193، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/9.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/30، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230.
(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/306، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/274.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/9.

قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾، ومقتضى الظَّاهر أن يقال: من استطاع سبيلاً إليه، وفي هذا التَّقديم دلالة على الاهتمام بشأن المتعلِّق لما يتضمَّنه من معنى الإيصال والإفضاء، وهو كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [غافر: 11][1].

تقديم المتعلّقِ دليلٌ على الاهتمامِ بشأنه

بلاغةُ استعارةِ السَّبيل عن كُلفةِ الحجِّ:

وفي التَّعبير بالسَّبيل في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ استعارة، إذ السَّبيل في اللُّغة هو الطَّريق، وعُبِّرَ به هنا عمَّا يَتمكَّن به المكلَّف بالحجِّ منه من الزَّاد والرَّاحلة، وسائر شروط صحَّة الحجِّ، فشُبِّهت هذه الشُّروط بالطَّريق الذي لا يوصَل إلى الحجِّ إلَّا بعبوره، والسُّلوك مِن مَجَازِهِ إليه[2].

الـقـدرةُ الـتَّـامّـةُ هي شرطُ الحجِّ

سرُّ العدولِ عن ذكر عدمِ الحجِّ إلى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

غلَّظ الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أمر ترْكِ الحجِّ، وشدَّد على تاركه تشديدًا عظيمًا، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بدل: ومن لم يحجَّ؛ لأنَّ ترْك الحجِّ بالكُلِّيَّة إنَّما هو من فعل الكفَرة، فذُكر الكفر هنا تشبيهًا بصنيع تارك الحجِّ بأنَّه كصنيع من لا يؤمن بالله ورسله وفضيلةِ حَرَمِه، وفي هذا توكيد لفرضيَّة الحجِّ يضاف إلى التَّوكيدات السَّابقة واللَّاحقة، ومثله في التَّغليظ ما روي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: "من لم يحبسْه مرضٌ، أو حاجةٌ ظاهرةٌ، أو سُلطانٌ جائرٌ - ولم يحُجَّ - فليَمُتْ: إن شاء يهوديًّا أو نَصرانيًّا"[3][4].

ترْك الحجِّ جملةً هو كُفرانٌ يَصدُرُ عن الكَفَرة

وقيل: إنَّ الله تعالى سمَّى ترْك الحجِّ كفرًا، لكنَّه كُفْر دون كفر، فهو كُفر بالنِّعمة، لا كفرٌ مُخرِج من الدِّين.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/61.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/22.

(3) رواه البيهقيُّ في السُّنن الكبرى: 9/227، الحديث رقم: (8733)، عن أبي أمامة مرفوعًا، وإسناده ضعيف.

(4) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/30، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/62.

وقيل: إنَّ الكفر في الآية على ظاهره، والمراد به هو الكفر بالإسلام، وفائدة ذكره هي التَّعريض بالمشركين بأنَّ حجَّهم الذي كانوا يحجُّونه في الجاهليَّة غير مقبول عند الله، وأنَّ المقبول عنده تعالى: هو حجُّ المؤمنين والموحِّدين[1].

دلالةُ التَّذييل في قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

الله غنيٌّ عن عبادةِ العالمين، ونفعُ الحجِّ يعود على العبادِ

في ذكر استغناء الله تعالى عن جميع العالمين في قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعد التَّنصيص على فريضة الحجِّ توكيد لكونِ الحجِّ من مقتضيات الإيمان، وأنَّ مباشِرَه مستأهلٌ رضا الله تعالى وثوابه، أمَّا تاركه؛ فإنَّه تعالى غير مكترثٍ به، وكفى بذلك إيذانًا بالسُّخط والغضب[2]، لاسيَّما أنَّ تفريعَ الاستغناءِ كان عن ترك الحجِّ جملةً مع عدمِ الإيمانِ.

وفي ذكر الله تعالى غناه عن جميع العالمين في هذا الموضع إشارة إلى أنَّ أمرَ الله عبادَه بالحجِّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ ليس لحاجة به - جلَّ وعلا - بل لأنَّ منفعة الحجِّ الدُّنيويَّة والأخرويَّة، للحاجِّ نفسه، واستغناء الله تعالى عن الخلق كامل شامل لجميع الوجوه، وليس هو مفتقرًا لحجِّ أحد ولا عبادته[3].

دلالة وضع الظَّاهر موضع الضَّمير في: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

التَّنبيهُ بالأعمِّ على الأخصِّ في سياقِ الذَّمِّ أشدُّ في الذَّمِّ

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جاءَ الاسمُ الظَّاهر موضعَ الضَّميرِ، فلم يقل تعالى: (غنيٌّ عنه)؛ للدّلالةِ على العموم؛ فذكرُ استغنائه تعالى عن جميعِ العالمين أدلُّ في السُّخط على تارك الحجِّ من ذكر استغنائه عنه وحدَه، حتَّى إنَّه أسقط ذكر تارك الحجِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/24.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/24.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/745.

تمامًا، إسقاطًا له من درجة الاعتبار، واستهجانًا لذكره، وفي هذا دليل على شدَّة غضبه تعالى على تارك الحجِّ[1].

تقديرُ جوابِ الشَّرطِ لقولِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لما كان يُفهم منه بطريق الكناية سخط الله تعالى على من كفر؛ صحَّ أن يقع جوابًا للشَّرط، وقيل: الجملة دليل جواب الشَّرط، لا الجواب نفسه[2].

من المحسِّنات البديعيَّة في الآية:

الاحتباك في إثبات فرض الحجِّ وذكر كُفر من جحده

في الآية احتباك[3]؛ فلمَّا أثبَتَ فرض الحجِّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ دلَّ على كُفر مَن أنكره، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ دلَّ على إيمان من حجَّ، فحُذِف من الجملة الأولى ما أُثبت نظيره في الثَّانية، ومن الثَّانية ما أُثبت نظيره في الأُولى[4].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/390، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/480، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/62.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/229.
(3) وهو أن تُذكر جملتان متقابلتان، ويُحذف في الأولى منهما ما ثبت نظيره في الثَّانية، وفي الثَّانية ما ثبت نظيره في الأولى، يُنظر: السِّيوطي، شرح عقود الجمان، ص: 133
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/10.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»